النشاط السياسي الخارجي لثورة التحرير المجيدة

مجاهـــدون برتبـــة سفراء قـــادوا المعركـــة الدبلوماسيـــة باقتدار

فضيلة دفوس

الكفاح المسلح على جدواه و أهمّيته في تحقيـق النّـصـر و اسـتـعـادة الأرض المغتصبة ،لم يكن كافيا وحده ليقود الجزائـر إلى الاسـتـقـلال ،فمثلما كانت حرب التحرير بحاجة إلى السلاح و إلى مجاهدين أشاوس لاستعمال هذا السلاح في ساحات الوغى ، كانت أيضا بحاجة لمعركة موازية تخوضها وسيلة مقاومة أخرى ألا و هي الدبلوماسية التي أخذت آلتها تشقّ طريق التدويل الصّعب و تنتزع الاعتراف و الـتـأييـد و الـدّعـم مـن هـذه الدولة و تلك المنظمة و المجموعة ، إلى أن أصبحت القضية الجزائرية حاضرة في كلّ المحافل وصوتها يصدح من على كلّ المنابر و الفضل الكبير في بلوغ هذا النـجـاح يـعـود لـرجـال قـادوا النضال السيـاسـي الخارجـي بـحـنـكـة فـكـانـوا دبلوماسيين بالفطرة لم يتخرّجوا من مدارس و لا معاهد لكنّهم ربحوا رهان تـدويـل الـقـضـيـة الجزائـريـة الـعـادلـة و أوصـلـوهـا إلى الأمم المتـحـدة ثـم إلى الحرية.

باندونغ ..من هنا بدأ التدويل

كـثيرون يـؤرّخـون لانـطـلاق المعـركـة الدبلوماسية ، بميلاد الحكومة المؤقتة في 19 سبتمبر 1958 أي بعد ثلاث سنوات من اندلاع ثورة التحرير المظفرة، لكن الحقيقة أن قادة مسيرة التحرير ضد الاستعمار الفرنسي أدركوا منذ البداية أن الثورة تقوم على دعامتين ،عسكرية و دبلوماسية ،و على معركتين، داخلية و خـارجـيـة ،لـهـذا تـم الـتـوجـه إلى الساحة الدولية بأهداف محدّدة ، لعلّ أهمها ،هو تدويل القضية الجزائرية من خلال ربح أصدقاء و مساندين ، وكسب الرأي العام الـعـالمي مـن خـلال كشـف مـا يـتـكـبّـده الجزائريون على يد السفّاح الفرنسي،و عـزل الاسـتـعـمـار سـيـاسـيـا و إنـهـاكـه إعلاميا.

وكـان مـؤتمر بـانـدونـغ الآفـرو –آسـيـوي المنعقد ما بين 18– 24 أفريل 1955 أي بـعـد أقـل مـن سـنـة عـن انـدلاع الـثـورة المجيـدة ،أول محفل تـدخـلـه الـقـضـيـة الجزائـريـة ، وتـوّج هـذا المؤتمر الـذّي اعتبره البعض بمثابة نوفمبر جديد على المستوى الدولي، ببيان ختامي شدّد على حقّ الشعب الجزائري في تقرير مصيره ،و مـن هـنـا كـانـت الانـطـلاقـة بـدعـم مـن الأشـقـاء و الأصـدقـاء لإدخـال الـقـضـيـة الجزائـريـة إلى المنـتـظـم الأممي ،وعـلـى الرغم من أن مسار التدويل كان شاقا و مـلـغّـمـا ،و طـريـق الشـرعـيـة مسـدود بالمتواطئين مع فرنسا الاستعمارية ، إلاّ أن قضية الجزائر تمكّنت في شهر جويلية 1955 من اختراق أسوار الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الـ 10 بدفع من مجموعة دول أفرو ـ آسياوية ،وبالرغم من عدم قبول تسجيلها رسميا في هذه الـدورة بـعـد انسـحـاب الـوفـد الـفـرنـسـي غـاضـبًـا ومُـحـتـجًّـا بـذريـعـة أنّ "قضية الجزائر هي مسألة داخلية فرنسية"، فإن دبلوماسيي الثورة لم يستسلموا لميزان القوّة الذي لم يكن في صالحهم ،و خاضوا معارك صعبة وشاقة انتهت بانتصار قوّة الحق على حقّ القوة ، وكُلّلت جهودهم بـتـسـجـيـل الـقـضـيـة رسـمـيـا عـلـى جـدول أعمال الجمعية العامة الأممية، قبل أن تـبـاشـر الأمم المتـحـدة في جـوان 1956 مـنـاقـشـة قـضـيـة الجـزائـر ، لـكـن وصـول المسألة الجزائرية إلى المنتظم الأممي على أهمّيته لم ينصف الجزائريين الذين كان عليهم البحث عن هيكل ينظّم النضال السياسي ويؤطر العمل الدبلوماسي ، فـكـان الإعـلان عـن تشـكـيـل الحكـومـة المؤقّتة في 19 سبتمبر 1958، والذي جاء أيضـا ليرفـع مـن مـعـنـويـات الشـعـب الجزائري على اعتبار أن تشكيل الحكومة سينظر إليه كمؤشر عن قرب الاستقلال .

الحكومة المؤقتة..وثبة إلى الأمام

جـاء تشكيل الحكومة المؤقتة ليُعطي للقضية الجزائرية زخما ودفعًا قويَّين، حـيث قـامت الحكـومـة عبر عشـرات المكاتب الـتـي افـتـتـحـتـهـا لـدى الـدول الشـقـيـقـة والـصـديـقـة ، بـنـشـاطـات دبلوماسية مُكثفة في أنحاء العالم توّجت بكسب مزيد من المتعاطفين و الداعمين لتقرير المصير.

وشرع محمّد الأمين دباغين الذي عيّن وزيرا للخارجية في أوّل تشكيلة للحكومة المؤقتة ما بين 1958 و 1960 في جولات خارجية فضحت مناورات المستعمر و مخـطـطـاتـه المخادعـة ، بـدءا بسـلـم الشـجـعـان ،وخـط شـال و مـوريس و الأسـلاك المكـهـربـة ، ثـمّ خـلـفـه كـريم بلقاسم في التشكيلة الحكومية الثانية ما بين 1960 و 1961 ،و قام بجولات قادته إلى عدد من البلدان على غرار الصين أين استقبل من طرف الزعيم ماوتسي تونغ ،كـمـا زار بـلـدانـا عـربـية عـديـدة ،و قـد أثـمـرت هـذه الـزيـارات زيـادة حـجـم المساعدات المالية و العسكرية للثورة التي ارتفع لهيبها و جعلت الاستعمار يخرّ صاغرا منهزما بعد أن انكشفت عورته و انفضّ الكثير من حلفائه.

فرنسا تنهزم وتقبل التفاوض

نتيجة لتناغم الأداء بين الداخل والخارج، تحققت الانتصارات المتتالية التي كان لـهـا آثـار مـوجـعـة ومـؤلمة عـلـى فـرنـسـا الاسـتـعـمـاريـة سـواء بضـربـات الـكـفـاح المسلح في الداخل أو على مستوى الأداء المميز لمناضلي دبلوماسية الثورة في الخارج، وأدّى ذلك إلى إسقاط 7 حُكومات فرنسية من نوفمبر 1954 إلى ماي 1958 ،و في الأخير اضطر الرئيس الفرنسي الجنرال ديغول ،الذي استعمل يائسا كل الوسائل و الطرق لمحاولة إجهاض الثورة ،و ظلّ متمسّكا بحدود فرنسا من بحر الشـمـال شـمـالا إلى بـحـر الـرمـال جـنـوبـا ،للاعتراف بجبهة التحرير الوطني ممثلًا وحيدًا للشعب الجزائري و قبل التفاوض معها في خطاب ألقاهُ في جوان عام 1960، بعد أن فشل فشلًا ذريعًا في إقحام ما أسماها بالقوة الثالثة في التفاوض وهو ما رفضتـهُ جبهة التحرير الوطني رفضًا قاطعا، وكذلك رفضت فكرته المعروفة بسـلـم الشجـعـان الـذّي كـان مضمونه أن يضع جيش التحرير الوطني سلاحهُ ويتم بعد ذلك التفاوض.

طريق المفاوضات شاق لكنه مثمر

في لحظة تاريخية فارقة ،وجّه ديغول نداء لقادة الثورة و طلب منهم الحضور إلى فـرنـسـا بـقـصـد الـتـفـاوض ،و كـانـت البداية ب "محادثات مولان" ،و في 20 ماي 1961 انطلقت "مفاوضات إيفيان" الأولى ،تلتها "إيفيان الثانية " ما بين 7 و 18 مارس 1962،و عشية 18 مارس وقّعت اتفاقيات إيفيان على الساعة الخامسة و النصف مساء و دخل وقف إطلاق النار حيّز التطبيق في منتصف اليوم الموالي.

وعرفت العملية التفاوضية عدة مراحل كـمـا شـهـدت عثرات عـدة بسبب تـعـنت الطرف الفرنسي وتمسكه بقضية فصل الصحراء والامتيازات التي حاول فرضها على المتفاوضين، غير أن حنكة الوفد الجزائري الذي كان يرأسه كريم بلقاسم تمكـن مـن تـرويض لـويس جـوكس في مفاوضات إيفيان الأولى و الثانية وانتزع منه توقيعا على وقف القتال.

هذا الاتفاق لم يرض أطرافا فاعلة في الجيش الفرنسي ومنهم السفاحين رؤول سـالان، ادمـونـد جـوهـو، انـدري زيـلـر ومـوريس شـال الـذيـن شكلوا المنظمة العسكرية السرية والتي كان الهدف من إنشائها الوقوف ضد هذه الاتفاقيات المبرمة بين الحكومة الفرنسية وممثلي الحكومة الجزائرية المؤقتة.

ودعا الجنرال سالان في 5 جانفي 1962 الأقدام السوداء للانتفاضة والمحافظة على أملاكهم المكتسبة بالقيام بعصيان مدني ليدخل البلاد في حرب لا نهاية لها، كما دعا كل العسكريين الموالين له للقيام بعمليات تخريبية وتصفيات جسدية لكل من يدافع عن رحيل القوات الفرنسية من الجزائر، فعاشت المدن الكبرى للجزائر ولاسـيـمـا الـعـاصـمـة ووهـران عـمـلـيـات تخريبية عديدة.

و مع هذه الأجواء جرى استفتاء تقرير المصير بالجزائر في الفاتح جويلية 1962 وأعلنت النتائج في اليوم الموالي وبينت أنّ 97.5 ٪ من المشاركين أيّدوا الاستقلال، ويـوم 3 جويلية 1962 أعلن الرئيس الـفـرنسي الجنرال ديـغـول الاعتراف رسميًا باستقلال الجزائر واختار قادة الثورة وقتها يوم 5 جويلية 1962 تاريخا رسميا لإعلان الاستقلال لأنّهُ يُصادف ذكرى الاحتلال الفرنسي للجزائر يوم 5 جويلية 1830 لمحو هذه الذكرى الأليمة وتكريس استعادة الاستقلال والسيادة الوطنية.

يوم النّصر

لـيـل الاسـتـعـمـار كـان طـويـلا وحـالـكـا بمظالمه و انتهاكاته،لكن النّصر كان قدر الجزائريين الذين لم يتوقّفوا يوما عن مقاومة العدو الغاصب، و استطاعوا أن يصنـعـوا واحـدة مـن أعظم الثورات في العالم و أنجحها .

إنّ النصر الكبير الذي تحقّق في الخامس جويلية 1962 ، لا يعود فقط إلى الكفاح المسلّح بل كذلك إلى العمل الدبلوماسي ،و إلى ذلك التنسيق و التكامل بين النضال الخارجي و الـكـفـاح الـعسكري ،فـالآلة الدبلوماسية كانت تتحرّك بالتنسيق مع الآلة العسكرية ،و كلّما كان الاستعمار يضيّق الخنـاق عـلـى إحـداهـمـا ، كـانـت الأخـرى تسـارع إلى نجدتـهـا ، فـمـثـلا ،عـنـدمـا كـان المفـاوض الـفـرنسي يشدد الضغط على المفاوض الجزائري ،كانت الثورة تكثّف ضرباتها لتفكّ هذا الخناق ،و لمّا كانت الثورة تتعرّض للمصاعب، كانت الآلة الدبلوماسية تتحرّك خارجيًا بشنّ حملات إعلامية ضدّ العدو .

النجاح الدبلوماسي بإعلام قويّ

وعـلـى ضـوء الحديث عـن الحمـلات الإعلامية التي اعتمدتها الدبلوماسية الجزائـريـة لـكسب مـعـركـة الخارج ، من المنصف الـتـذكير بـالـدّور الـذي لعبته إذاعـة " صـوت الجزائـر" في الـتـعـريـف بالقضية الجزائرية و الدفاع عنها.

وراهنت دبلوماسية الثورة منذ البداية عـلـى ربـح مـعـركـة الخارج مـن خـلال التعريف بعدالة المسألة الجزائرية ،و كسب مـزيـد مـن المتـعـاطـفـين ،ثـمّ و هـو الأهم ،تدويل القضية و إيصالها إلى الأمم المتحدة .

المهمّـة عـلـى صعوبتها اضطلعت بها إذاعة "صوت الجزائر" التي كانت تبث برامجها باللغة العربية من مصر، و ظلّت هذه البرامج تذاع حتى بعد إنشاء الإذاعة السـريـة لـلـثـورة في قـلـب الجزائـر عـام 1957،كما كانت إذاعات الدول الصديقة تذيع أخبار حرب التحرير بلغات متعددة ،و قـد خـدمـت هـذه الـبـرامـج الإذاعـيـة الـثـورة المظـفـرة و الـنـضـال الـسـيـاسـي الخارجي كثيرا ، فكانت أداة فعّالة في غرس روح النضال و رفع معنويات الشعب و إيمانه بالنصر،كما كانت محرّكا أساسيا للعمل الدبلوماسي .

و لإيمانها بأهمّية سلاح الإعلام ،دعمت جـبـهـة الـتـحـريـر الـوطـنـي تـرسـانـتـهـا الإعـلامـيـة بـإصـدار صـحـيـفـتـين هـمـا " المجاهـد" سـنـة 1956 و "المقـاومـة الجزائرية" عام 1955 .

وقد دافعت جريدة "المجاهد" بقوّة عن القضية الجزائرية، حيث أولت اهتماما خاصا بالنشاط الدبلوماسي لقيادة ثورة التحرير، و قامت بتغطية كلّ جوانبه، كما كانت تنقل مختلف النتائج و الانتصارات الـتـي حـقـقـتـهـا المعـركـة الخارجـيـة ،و سـاهـمـت بـدورهـا في كسب مـزيـد مـن المؤيدين للقضية الجزائرية و لتقرير مصير الشـعـب الجزائـري حـتـى تحقّـق النصر.